((منهجية علم الانسان الاجتماعي))

دكتور : صبحي قنوص

منهجية علم الانسان الاجتماعي

دكتور : صبحي قنـوص

بالرغم من تقدم كثير من المجتمعات ماديا وثقافيا الا اننا نجد كثيرا من مفكري علم الانسـان الاجتماعي (الانثروبولوجيـا الاجتماعيـة) Social Anthropology كان ولا يـزال اهتمامهم منصبا علـى دراسـه الكل الوظيفي للمجتمع [1] . وهذا الاهتمام كان مرجعه الى أن الدراسات الميدانية المبكرة كانت مركزة على دراسة المجتمعات البدائية قليلة الحجم من الناحية السكانية ومحدودة الثقافة والتي اتصفت بالشمولية في أبنيتها وأنظمتها الاجتماعية . وقد رأى بعض من مفـكري عـلم الانسان وعلى رأسهم رادكلف براون Radcliffe - Brown أنه يجب على المشتغل بعلم الانسان الاجتماعي أن يدرس المجتمع من خلال مقارنته بمجتمع آخـر وخاصة فيما يتعلق بدراسة الوقائع والاحداث الموجودة في المجتمع الخاضع للدراسة . إلا أن وجهة النظر هذه التي أكد عليها رادكلف براون لا تفيدنا في شيء لانه لا يوجد تشابه وظيفي في مثل هذه الوقائع ، حيث ان مـا يعتبره الباحث الميداني حدثا أو واقعة أو نسقا بالنسبة للمجتمع الـذي يقوم بدراسته قد يراه باحث ميداني آخر عبارة عن مجموعة من التصورات أو ايديولوجيات معينة ، ولهذا فانه يصعب مقارنة هذه الوقائع حتى وان كانت موجودة في بعض المجتمعات حيث إن درجة وجودها تتفاوت نظرا لتفاوت وتباين درجات حدوثها ورسوخها في كثير من المجتمعات حتى ولو كانت بدائية ، ولا يمكن بأي حال من الاحوال دراستها كأشياء .

---

(١) هذا الاتجاه كان نتيجة لآراء ونظريات رادكلف براون وروبرت ميرتون النظرية .

وبما أن المجتمعات لا تعتبر أشياء بالمفهوم المـادي ، فانه لا يمكن دراستها على هذا الاساس ، فمفهوم المجتمع مفهوم عقلي فكري وليس مادي حتى ولو تغلبت عليه صفة الصناعية في بنيته ، وإن الشيء أو الكيان الوحيد الذي نحدده في أي موقف اجتماعي هو أفراد المجتمع • وإن ما نشير إليه عند استعمالنـا لمفهوم المجتمع هو أن أفـراد المجتمع متصلون ببعضهم إن لم يكن هذا الاتصال قرابيا Kin Relations ، فهم مرتبطون بطريق مختلف الانظمة الموجودة في المجتمع ، سواء بطريق النظام الاجتماعي أو الاقتصـادي أو السياسي أو الديني ، وإن وظيفـة عـالم الانسـان الاجتماعي وعالم الاجتمـاع هي محاولة التعرف وتفسير هـذه الانظمة والانسان الاجتماعية المندرجة تحتها • فالمجتمع اذن عبارة عن شبكة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة التي هي مجال علم الانسان الاجتماعي •

إنه لمن الخطأ استعمال مفهوم الكل الوظيفي ، أو الكل الاجتماعي للتدليل به على الواقعة الاجتماعية التي قد تظهر لدى فئة من فئات سكان المجتمع • فالكل الاجتماعي هو مجموعة أفراد المجتمع الذين تربطهـم أهداف وغايات معينة ، سواء كانت هذه الاهداف والغايات سياسـية ، اقتصادية ، أو اجتماعية • فـاذا ارتبط واتفق مجموع أفراد المجتمع من أجل تحقيق هدف معين ، يمكننا أن نعتبر أن شيئا أو واقعا اجتماعيا قد حدث بالنسبة لافراد ذلك المجتمع (٢) • ولكن بالرغم من حدوث عملية

---

(٢) ان خير دليل على هذا ما يجري الآن بين أفراد المجتمع العربي الليبي لتحقيق أهداف وغايات معينة سواء كانت على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي . فاذا تحقق ما يسعى اليه المجتمع الليبي الآن يمكننا أن نقول : ان واقعا اجتماعيا قد حدث بالنسبة له ، أو انه بعيش واقعا اجتماعيا ، وصل اليه عن طريق التحام أفـراده من أجـل تحقيق أهداف معينة ، أو واقع اجتماعي معين ، شريطة ألا ترفض أي فئة مـن فئاته السكانية هذا الهدف الذي نسميه الواقع الاجتماعي .

تـوافق بين أفراد المجتمع ، وبالرغم من أن شيئا ما قد تحقق ، إلا أنه لا يمكن للمتخصصين في العلوم الاجتماعية أن يدرسوا ذلك المجتمع ككل • فان مـا يحدث في جزء من البناء الاجتمـاعي Social Structure يختلف جذريا عن حدوثه في بقية الاجزاء ، وحيث إن درجة الحـدوث تتفاوت إلا أن منطلقها قد يكون واحدا ، ولكن أهدافها تختلف وذلـك حسب الاطار الذي حدث فيه الهدف سواء كان سياسيا ، اقتصاديا ، أو اجتماعيا • فاذا أخذنا مفهوم التحضير مثلاUrbanism نجد أن جوانبه المعنوية والمادية تتفاوت ، حيث إن ما يحدث من تحضر أو تقدم في الجانب المادي لا يعني نفس درجة الحدوث في الجانب المعنوي فأحدهما بطبيعة الحال أسبق من الآخر ، وعادة ما يكون الجانب المادي كما هو ملاحظ في مجتمعنـا العربي الليبي ودول العالم الثالث • وتجدر الاشارة هنـا الى فقدان التخصصية بالنسبة للباحث الاجتماعي سواء كان في مجـال علم الانسان الاجتماعي أو علم الاجتماع • فبالرغم من تعدد فروع العلمين إلا أن جميعها ما زالت تدور في حلقة مفرغة ، حيث إن ما يدرسه المتخصص في فرع من هذه الفروع نراه متكررا بالنسبة لبقية المتخصصين في الفروع الاخـرى ، وإن تعـدد هذه الفروع مـا هو إلا تدليل على تطور العلوم الانسانية ولكن من وجهة نظرية بحتة ، حيث إن الواقع عكس ذلك تماما• إن الهوة لا زالت كبيرة ، وتغطيتها أو التخلص منها لا يمكن أن يزول الا بزوال العمومية المستحوذة على علماء الاجتماع وعلم الانسان الاجتماعي وخاصة في دول أفريقيا وآسيا • فاذا طبقت التخصصية يمكننـا بعدها أن نقول أو نثبت لكل فرع من هذه الفروع أو لكل متخصص فيها درجتـه ومكانته وفائدته العلمية •

إن المجتمعات الانسانية حتى ولو افترضنا أنها عبارة عن كل مجرد ، فانه يتعذر على الباحث أن يدرسـها ككل واحد ، وعليه سـواء كانت دراسته وصفية أو تحليلية أن يركز على أحد الجوانب المتصلة بالبنـاء الاجتماعي كأن يقصر دراسته على الانظمة الاجتماعية أو الاقتصادية أو

السياسية . إن عملية التحديد والاختيار هي التي تجعل للنظام الذي اختاره المتخصص لدراسته والبحث فيه كيانا متكاملا . فاذا حدد المتخصص مجال بحثه يمكننا أن نقول : انه توصل الى مفهوم الكل بطريق الجزء . وهذا لا يتأتى إلا بطريق عملية التحديد والتخصصية . فالدارس يستطيع أن يدرس نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا متكاملا ، ولكن لا يمكنه أن يدرس بناء اجتماعيا بكامله أو بمعنى آخر مجتمعا من المجتمعات بكامله . ان ما يقوم به عالم الانسان الاجتماعي هو تجريد جوانب محددة من السلوك الاجتماعي المتسق وذلك بقصد التوصل الى العوامل والمؤثرات التي تجعل لهذه الجوانب من السلوك الاجتماعي شكلا منمطا يتفق أغلب أفراد المجتمع في تطبيقها والتقيد بها ، ومقارنة هذه الاشكال المنمطة من السلوك الاجتماعي بما لديهم من افتراضات أو نظريات معينة . وهذه هي أحدث الطرق العلمية والمنهجية المتبعة الآن في تحديد الانظمة الاجتماعية ومن الامثلة على ذلك دراسة العلاقات القرابية وأثرها على نظم الزواج والقواعد المتبعة التي يطبقها سكان منطقة ما (سواء كانت منطقة حضرية أو ريفية) من ذلك المجتمع . فليس من السهل أن يقوم عالم الانسان الاجتماعي بدراسة أثر العلاقات القرابية على نظم الزواج في المجتمع الواحد ، لان هذا المجتمع بالرغم من أنه يدين بدين واحد ، ويتحدث لغة واحدة ، فلا يمكن لاي متخصص في علم الانسان الاجتماعي أن ينكر أن سكان منطقة ما يختلفون عن سكان المنطقة الاخرى وذلك فيما يتعلق بنظم الزواج وما يندرج تحتها من العادات والتقاليد المتبعة في ذلك (٣) . فاذا أخذنا مثلا منطقة كمنطقة طرابلس مقارناها بمنطقة بنغازي ، فنلاحظ أن هناك اختلافا ـ ان لم يكن كبيرا ـ من حيث المشروطات التي يجب أن يوفرها أهل الزوج ، أو الزوج نفسه

(٣) E. L. Peters, Aspects of Affinity in a Lebanese Maronite Village, 1975 ; PP. 50 — 53 .

والكيفية التي تساق بها لاهل الزوجة .ومن هو صاحب الكلمة الاخيرة في الموافقة على زواج الفتاة ، هل هو الاب ، أم العم ، أم الخال ، أم هم جميعهم • وهذا راجع بطبيعة الحال الى نوع التركيبة الاجتماعية والايكولوجية لسكان منطقة طرابلس وبنغازي • ولا يقف الاختلاف عند هذا الحد ، بل ان ما يجري داخل الحدود الادارية لمنطقة طرابلس أو بنغازي يختلف عما هو موجود في الارياف لكلا المنطقتين •

ان مهمة علم الانسان الاجتماعي هو التركيز على دراسة العلاقات الاجتماعية المتسقة وكيفية تنظيمها بين أفراد المجتمع المدروس • وهذا لا يعني أن دراسة هذا النوع من العلاقات الاجتماعية أنها تمثل أو تنطبق على جميع سكان ذلك المجتمع ، ولا يمكن بأي حال من الاحوال اعتبارها كلا واحدا • إن المقصود بالعلاقات الاجتماعية المتسقة أو المنسوطة Institutionalized هي العلاقات المألوفة والثابتة بين أفراد المجتمع وتعتبر خاصة من خواصه • وبالرغم من نمطية العلاقات الاجتماعية الا أن بعضها تختلف عن الاخرى من حيث درجة النمطية نفسها ، فهناك العلاقات الاجتماعية الاكثر نمطية من الاخرى ، وهناك العلاقات الاجتماعية القابلة للتغير والتعديل والتي تتأثر بادخال أي جديد عليها ، حسب تتطلبه الظروف الحياتية اليومية والتي قد يحددها في أغلب الاحيان العامل الاقتصادي والعامل السياسي ، وهناك من العلاقات الاجتماعية التي تقاوم التغير كنوع العلاقات السائدة في الارياف ، حتى وان تأثرت بأي جديد ، فان درجة تغيرها بطيئة جدا مقارنة بنوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية الموجودة في المدن المتحضرة .

ان العلاقة الاجتماعية Social Relationship هي ذلك الاسلوب الذي يتعامل به الافراد ويتصرفون حيال بعضهم بعض • وبمعنى

آخر . هي تلك الارتباطات والالتزامات الاجتماعية التي تشد الافراد الى بعضهم ، والتي بدورها تحـدد نوعية التصرف والتعامل الاجتمـاعي . فالعلاقة الاجتماعية بين الزوج وزوجته على سبيل المثال في مجتمع ما تعني الطريقة التي يتعامل بها الزوج حيال زوجته والعكس بناء على الرابطـة الاجتمـاعية Social Bond الموجودة بينهمـا ، وبما يتمشى والنظم والاعراف الموجودة في ذلك المجتمع ، وعلى هذا المستوى لا بد من التأكيد على عاملين رئيسيين فيما يتعلق وطبيعة أية علاقة اجتماعية :

أولا : لكي توجد العلاقة الاجتماعيـة وتستمر لا بـد مـن وجود مجموعة من الوحدات الاجتماعية ليتم تبادل العلاقات الاجتماعية وتتحدد نوعيتها وعادة ما يتم ذلك بطريق العامل الاجتماعي Social Factor .

ثانيا : لا بد من وجود أشياء أو موضوعات معينة ، كتوزيع الثروة ، والحاجة الى الاحترام والالتزام الاجتماعي ، والهدف المشـترك ، التي تحدد بدورها نوعية العلاقة الاجتماعية ، والتي كثيرا ما يعبر عنها بطريق التمييز بين مكانة الفرد الاجتماعية كأب وكزوج وبالتالي تتعـدد أدواره الاجتماعية وتختلف (٤) .

ولكن بالرغم من أن جميع المكانات الاجتماعية لها ادوار اجتماعية ، إلا أنه ليس بالضرورة أن يستدل على مكـانة الفرد الاجتمـاعية بطريق أفعاله وأعماله . فبعض المكانات الاجتماعية كمـا يسميها بعض علمـاء

---

(٤) لقد تطرق الى هذا الجانب بشيء من التفصيل تالكت بارسونز في كتابه « النسـق الاجتماعي » عندما تنـاول مفهوم الدور والمكانـة الاجتماعية .

T. Parsons, The Social System , London , 1952 ; PP. 18 — 19

الاجتماع مكتسبة أو معزوة Ascriptive ، والبعض الآخر يأتي بطريق مساعي الفرد في المجتمع ،أي تتكون مكانته بطريق ما حققه بالفعل بواسطة مساعيه التي تتفق ومسيرة المجتمع • ويعتبر هذا النوع من المكانة الاجتماعية ذات صلاحية مقبولة أكثر من النوع الاول (المكتسبة) ، لانها مؤقتة وتزول بزوال الثروة التي ورثها الفرد بطريق أبويه أو أجداده ، أو سلطة تحكمية قد تنتهي وتزول بقيام سلطة أخرى مناهضة لها • أما النوع الثاني من المكانة الاجتماعية عادة ما يحدث تدريجيا بعكس النوع الاول والذي يحدث فجائيا في كثير من الاحيان •

وهناك نوع ثالث من المكانات الاجتماعية وهو ما يسمى بالمكانة الاجتماعية الوظيفية • فالاب له مكانة وظيفية حيال أبنائه ، وكذلك الاخوة تجاه بعضهم بعض ، ومهما اختلفت وتنوعت تصرفات الآباء حيال الابناء فان مكانتهم الوظيفية ثابتة لا تتغير • وهذا النوع من المكانة الاجتماعية (الوظيفي) هي الذي يهم المشتغلين بعلم الانسان الاجتماعي بالدرجة الاولى عند دراستهم لمفهوم العلاقة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات • في كل مجتمع من المجتمعات سواء كانت نامية أو متطورة تكنولوجيا يوجد ما يعرف بعلاقة الاقارب Kin Relations إلا أن نوعية هذه العلاقة تختلف من مجتمع لآخر ، وذلك لاختلاف البيئة والثقافة •

وقد أصبح مؤكدا لدينا بطريق ما سلف ذكره أن العلاقة الاجتماعية لها مضمونا أكثر من ذلك الذي يشير الى أفعال الافراد وتصرفاتهم تجاه بعضهم بعض • فالفرد في المجتمع أو الدارس له لا يمكنه التدليل على مكانة الفرد الاجتماعية بطريق ما يلاحظه ، حيث ان المكانة الاجتماعية ليست شيئا ماديا ملموسا بقدر ما هي شيء معنوي • وقد يتراءى للبعض

أن هناك أشياء مادية تسهم في مكانة الفرد الاجتماعية وتحدد نوعيتها ، حيث انه ليس بالضرورة أن تكون الاشياء أو الحاجات المادية التي يمتلكها الفرد رمزا أو مدلولا لمكانته الاجتماعية Social Status . فقد لايكون للفرد الثري مكانة اجتماعية في المجتمع . ان المكانة الاجتماعية للفرد هي تعامل وأخذ وعطاء وإفادة ، وهي أيضا أن يسخر الفرد كل ممتلكاته سواء كانت المادية (الثروة) أو المعنوية (الثقافة) لصالح وخدمة بقية أفراد المجتمع أو على الاقل لبعض منهم .

ان المكانة الاجتماعية من وجهة نظر علم الانسان الاجتماعي لا تتحقق للفرد ألا إذا اعترف بها بقية أفراد المجتمع أو على الاقل المجموعة التي يتعامل معها . فمثلا المكانة الاجتماعية لعضو هيئة تدريس في جامعة ما لا تتحقق بطريق حصوله على درجة علمية عالية ما لم ينعكس مستوى الدرجة العلمية التي يحملها على طلبته وذلك من خلال التفاعل والتعامل العلمي والعملي مستعينا بعطائه الفكري . فاذا اعترف له جمهور مجتمعه الصغير (الجامعة) والمجتمع الذي يعيش فيه يمكننا أن نقول بأن شيئا ما قد تحقق لعضو هيئة التدريس هذا ، وهذا الشيء يمكن أن نسميه المكانة الاجتماعية . ولطبيب مثلا ــ ولا أحد يستطيع أحد أن ينكر أنه يحمل مؤهلات تؤهله لمزاولة مهنته ــ ألا أن هذه المؤهلات لا تسبغ عليه مكانة اجتماعية بقدر الاعتراف الذي يضمنه من خلال مزاولة عملياته الجراحية الناجحة على جمهور مرضاه . فالمؤهل أو الدرجة العلمية التي يحملها الطبيب لا تزيد عن كونها وسيلة تقديم الطبيب لجمهور مرضاه . وبعد عملية التقديم هذه التي يصحبها اجراء العمليات الجراحية الناجحة والاكتشافات العلمية كالعقاقير الطبية المفيدة ، هي التي تؤهله للحصول على مكانة اجتماعية معينة ، والتي يعترف بها جمهور مرضاه والمختصين

الذين يتعامل معهم [٥] .

ان العلاقات الاجتماعية لا يمكن بأي حال من الاحوال التدليل عليها دون تحديد التوقعات والمعطيات وما يصحبها من قيم اجتماعية صالحة ومفيدة . ان مفكري علم الانسان الاجتماعي مثلهم في ذلك مفكري علم الاجتماع يهتمون بتصرفات الافراد ومعاملاتهم في الحياة حيال بعضهم بعض وما ينتج عن ذلك من قيم اجتماعية تعتبر الى حد كبير نوعا من التنظيم للعلاقات الاجتماعية للاجيال القادمة . فالآراء المتعلقة بنوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية يمكن اعتبارها مجرد توقعات أو نوع من الاعتراف بالالتزام المجتمعي ؛ وبمعنى آخر اعتراف لنوع المكانة الاجتماعية لفرد ما أو مجتمع كان قد حقق واقعا أو هدفا اجتماعيا لصالح جميع أفراده دون خروج أو شذوذ مجموعة من الافراد عن هذا الواقع أو الهدف الاجتماعي . ومن هذا المنطلق يمكننا أن نميز بين نوعين من التفكير الاجتماعي : الاول هو وجود نوع من الافكار تتعلق بما يجب فعله وتطبيقه عمليا ، والكيفية التي يتم بها تقبل النسق الاجتماعي Social System وطبيعة البيئة . والثاني تلك المعتقدات والقيم التي ترتبط بما يقوم به الافراد من أعمال وتصرفات في حياتهم اليومية . وأحيانا قد لا يدرك أفراد المجتمع هذين النوعين من التمييز بين طبيعة هذه الافكار والقيم والتي قد تتجسد ضمنا في علاقاتهم الاجتماعية ومعاملاتهم في الحياة .

إلا أن مفكري علم الانسان الاجتماعي المهتمون بدراسة العلاقات

---

(٥) لقد تطرق تالكت بارسونز الى هذا النوع من الاعتراف بالمكانة الاجتماعية عن طريق الاخذ والعطاء في كتابه : مقالات في النظرية الاجتماعية الصادر سنة ١٩٤٩ م .

T. Parsons, Essays in Sociologi cal theory , 1949 : Chapter 3 .

الاجتماعية يتعاملون معها على مستويين : الاول مستوى التوقعات في المعاملات اليومية وما يحدث عنها من تصرفات قد تتنافى مع قيم وايديولوجية المجتمع • والثاني موقف أفراد المجتمع من هذه التصرفات • ويتضمن المستوى الاخير عاملين هما :

١ ــ موقف الافراد من طبيعة الاشياء وكيفية حدوثها •

٢ ــ ما ينبغي أن تكون عليه طبيعة الاشياء [٦] •

إن أغلب مفكري علم الانسان الاجتماعي الذين قاموا بدراسات ميدانية لمجتمعات متعددة كثيرا ما نجدهم يعطون وزنا لهذه المستويات الثلاثة التي تتعلق بمفهوم العلاقة الاجتماعية ، إلا أنه نجدهم في بعض الاحيان يركزون أو يؤكدون مستوى دون الآخر ، وكثيرا ما يقصرون أو يعجزون عن التمييز بين هذه المستويات أو العوامل التي سبق الاشارة اليها • وضرورة التمييز بطبيعة الحال حتمية نظرا لتباين ثقافات المجتمعات مستعينين بطرق منهجية مختلفة • فاذا أخذنا المستوى الاول على سبيل المثال وليكن « ما وجب حدوثه » فالفكرة ليست بالامر الهين كما يتراءى لكثير من المهتمين بهذا النوع من المستوى والمتعلق بالفكر الاجتماعي • فلا يوجد حتى الآن سواء بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي أو أي علم من العلوم الانسانية الاخرى أن قيم بدراسة وقائع أو حقائق ثابتة دون تفسيرها وتحريفها واسناد هذا التفسير والتحريف الى طبيعة الظروف المحيطة بهذه الوقائع سواء كانت بيئية أو اجتماعية ، وبمعنى آخر اثر الايكولوجية البشرية Human Ecology في وجود الحقائق والوقائع

---

(٦) المقصود بالشيء هنا ، ما يحدد طبيعة العلاقة الاجتماعية بين فرد وآخر أو مجموعة وأخرى ، وقد يكون هذا الشيء التزام اجتماعي ، أو تقسيم ثروة معينة بين مجموعة من الافراد نتاج عملهم المشترك •

الاجتماعية • فمثلا تعدد الزوجات في مجتمع من المجتمعات قد يفسره البعض أو يرجعه الى نوعية التركيبة الاجتماعية للمجتمع • فالدارس لمجتمع رعوي أو زراعي قد يرجع ذلك الى احتياجات الاسرة الرعوية أو الزراعية لكثرة الايدي العاملة• والدارس لمجتمع انتقالي Transitional قد يرجع ذلك الى ارتفاع مستوى دخل الفرد أو افتقاره الى الوعي الاجتماعي وانخفاض المستوى التعليمي أو انعدامه معتمدا في تفسيراته على ملاحظاته وعلى أقوال الافراد المدروسين • وبمفهوم تفسيري أكثر فان كل المعرفة بما في ذلك معرفة ما يقوله الافراد وما يقومون به من أفعال ذات بنية اجتماعية مكونة من الاستنتاج Inference والملاحظة Observation وذات مدلول اجتماعي يطلق عليه الوقائع أو الحقائق Facts • والفكرة الاساسية التي يجب على مفكري علم الانسان الاجتماعي أخذها في الاعتبار عند دراسة مفهوم العلاقات الاجتماعية ألا يتغاضوا على أنهم يتعاملون مع مستويات مختلفة من العلاقات الاجتماعية حتى بين أفراد المجتمع الواحد ، وأن يراعوا أن التوقعات أو الاستنتاجات التي يضعونها قد تتغير بين فترة زمنية وأخرى وذلك نيجة لتغاير الافراد وتقبلهم لما يحدث من جديد كل يوم ، وهذا بدوره يؤثر في طبيعة العلاقات الاجتماعية حتى بين أفراد الاسرة الواحدة الذين تربطهم صلة الدم Blood Connection .

ذكرت سابقا أن ما يحدث من وقائع بالرغم من وضوحها والتدليل عليها يعتبر في بعض الاحيان شيئا مبلورا من قبل الملاحظ معتمدا على بعض المفاهيم التحليلية ، وكثيرا ما يحاول أن يجد لنفسه طريقة يختلف بها عن بقية أفراد المجتمع في تفسير وتحليل بعض الوقائع أو على الاقل ما يحدث في الحياة اليومية ، وقد يكون أحيانا على درجة من الصواب وذلك استنادا الى بعض الآراء والنظريات التي يعتمد عليها أثناء عملية التفسير والتحليل للوقائع المدروسة • وهذا التعارض بين أفكار الدارسين

المتخصصين ، وبين عامة افراد المجتمع بدأ يظهر جليا وذلك نتيجة لاجراء الدراسات الميدانية المكثفة التي أوجدت الاختلافات المتعددة بين أفراد المجتمع في تقبل الوقائع وفي تفسيرها وتحليلها ، كما تناولها مفكرو علم الانسان الاجتماعي وعبروا عنها بطرق مختلفة أيضا . وبالتالي نجد المفكر الامريكي روبرت ريدفيلد R. Redfield يطور فكرة أو مفهوم ثقافة العامة Folk Culcture والمفكر الفرنسي كلود ليفي ستراوس C. Levi Strauss يميزان بين النموذج الاحصائي والآلي (٧) . فقد كان لاستعمال ليفي ستراوس للمفهوم الاحصائي مدلولا هاما حيث ذكر أن « ما يحدث بالفعل » معرضا لمعالجة كمية Quantitative أو احصائية بطريقة تختلف عن معالجة بعض المفاهيم الاخرى مثل القيم والمعتقدات التي تعتمد الى حد كبير على البيانات النوعية Qualitative .

ان ما يجب مراعاته والاهتمام به هو محاولة الجمع بين ما يعتبر كميا ونوعيا فيما يتعلق بسلوكيات الافراد وتصرفاتهم . حيث إن الاتجاه السائد الآن لدى مفكري العلوم الاجتماعية المعاصرين هو الاعتماد على الجوانب الكمية واهمال الكيفية في دراسة الوقائع والظواهر الاجتماعية . وتجدر الاشارة هنا الى أنه توجد أشياء كامنه تتعلق بتصرفات الافراد ، وهناك أيضا أشياء خاصة بالقيم والمعتقدات غير واضحة وغير صريحة ، على الباحث الاجتماعي محاولة كشفها واخراجها إلى حيز الوجود حيث أنه لا يمكن الاعتماد على الوقائع الظاهرة واهمال الاشياء الكامنة في شرح وتفسير التصرف الاجتماعي . اننا لا ننكر أهمية البيانات الاحصائية

---

(٧) R. Redfield , The Folk Society . In The American Journal of Sociology , 1951 : No. 52 PP. 293 — 308

C. Levi — Strauss, Social Structure . In Anthropology To day , Chicago , 1953 : PP. 33 — 53 .

في دراسة بعض المشكلات الاجتماعية ، ولكن توجد مشكلات أخرى تتمتع بنفس الاهمية مثل تبدل العلاقة الاجتماعية بين الابن وأبيه وبقية أقاربه ، حيث تغيرت من درجة الانغلاق والتحفظ والالتزام الى درجة الانفتاح وعدم اللا مبالاة • وقد يتراءى لبعض المتخصصين في مختلف العلوم الاجتماعية بأن مثل هذه المشكلة تتأثر وتتغير وفقا لوجود متغيرات أخرى كالتعليم والاستقلالية وتقلص الاسرة الممتدة •

هناك أشياء وتصرفات اجتماعية لا يمكن حصرها كميا والاعتماد عليها في وصف أو تحديد نوعية العلاقة الاجتماعية السائدة بين أفراد الاسرة الواحدة أو بين مجموعة من الافراد ، بل يجب على الباحث الاجتماعي أن يركز على الجوانب النوعية بقدر أهتمامه بالجوانب الكمية في شرح وتفسير التصرف الاجتماعي • وجدير بالذكر أن البيانات الاحصائية قد لاتؤدي وظيفتها على أكمل وجه ما لم يلم الباحث الاجتماعي بالمفاهيم الاحصائية قبل أن يحدد دراسته وفروضه وفق النسق الاجتماعي لجمهور البحث ، حتى يتسنى له تطبيق البيانات الاحصائية على مجال بحثه • إن ما يؤخذ اليوم على بعض الباحثين الاجتماعيين هو تعاملهم مع البيانات الاحصائية الجاهزة التي يحصلون عليها من بعض المؤسسات والدوائر الرسمية وغيرها ثم يقومون بعملية التحليل لهذه البيانات الاحصائية دون الاهتمام بالجوانب الاجتماعية المتعلقة بالبيانات الاحصائية (٨) • فلا يمكن بأي حال من الاحوال أن يقدم الباحث نتائج دراسته ما لم يتعامل ويتفاعل مع جمهور البحث الخاضع للدراسة ، كأن يدون الانشطة الاجتماعية التي يقومون بها ويلاحظ طرق التعامل

---

(٨) لمزيد من الالمام بهذا الموضوع يرجى الرجوع الى كتاب :

Selltiz, C., And others , Research Methods In Social Relation , 1959 PP. 317 — 323 .

والتفاعل بين الافـراد في مواقف ومناسبات اجتماعيـة • فالتأكيد على البيانات الاحصائية فيما يتعلق بقضايا مثل الزواج وغلاء المهور لا تعطي أي مدلول اجتماعي إلا إذا فهم الباحث المقصود من هذه القضايا ومعانيها ومدلولاتها الاجتماعية في الاطار الثقافي للمجتمع ، حيث إن المـدلولات الاجتماعية لموضوعات قد تبدو بسيطة مثل قضايا الطلاق وغلاء المهور ، تختلف من منطقة لاخرى ، حتى بين أفراد المجتمع الواحد ، كما تختلف من مجتمع لآخر •

إن مهمة مفكر علم الانسان الاجتماعي لا تنحصر فقط في تسجيل وملاحظة التصرف الاجتماعي لافراد المجتمع وما ينتج عنه من أحـداث ومواقف اجتماعية بقدر ما هي معايشة للاحداث والمواقف الاجتماعية • ومما تجدر الاشارة اليه أنه بالرغم من أن للقيم أهمية بالغة للتدليل على نوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية فان الباحث الاجتماعي يهتم بالمرء الاول بهذه القيم قبل دراستها وتحديد المكونات والعناصر التي تجسد القيم الاجتماعية وصلتها بطبيعة العلاقات الاجتماعية • فلا يمكن بطبيعة الحال مثلا أن نتصور نوع المعتقدات التي يعتنقها مجتمع ما قبل دراسة ومعرفـة هذه المعتقدات ونشأتها والاسس التي قامت عليها • ففي الواقع أن أغلب المشتغلين بعلم الانسان الاجتماعي الذين قاموا بأبحاث وقدموا كتابات عديدة تخص الاديان والمعتقدات البدائية لـم يتناولوا في أبحاثهم هـذه وظيفة الجوانب الدينية والمعتقدات ومعانيها الاجتماعية وأثرها في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع [٩] • فعلى سبيل المثال لا الحصر كتب المفكر ديرل فورد D. Forde في مقدمته لمجموعة من المقالات لعدد

---

(٩) S. Gannous , The Social Structure of Al - Abiyar Township. Unpublished Ph. D Thesis , Manchester University , Manchester 1977 : Chapter 6. PP. 261 — 263 .

من مفكري علم الانسان الاجتماعي عن عديد من المجتمعات ، كانت أغلب هذه المقالات والبحوث تدور في حلقة مفرغة ، حيث كان اهتمامهم منصبا عن أثر البيئة الطبيعية في تجسيد المعتقدات الدينية ، غاضين الطرف عن الوظائف الاجتماعية للمعتقدات الدينية وركزوا جل اهتمامهم عن المكونات الطبيعية لهذه المعتقدات بدلا من الاهتمام بالافراد الذين اعتنقوا هذه المعتقدات والظروف التي دفعتهم الى ذلك (١٠) • وقد تناول ايفانز بريتشارد Evans - Pritchard في مقدمة كتابه : Nuer Religion

المعتقدات الدينية لقبائل النوير بجنوب السودان حيث كانت آراؤه صورة طبق الاصل لمن كتبوا في هذا المجال من قبله ، على أساس دراسة المعتقدات والاديان للشعوب التي اعتبروها بدائية آنذاك ، وليس على اعتبار العلاقة القائمة بين الفرد في تلك المجتمعات والاديان والمعتقدات التي يعتنقونها (١١) وبالرغم من وجود بعض التصورات الواردة في هذا الكتاب عن الوظيفة أو العلاقة بين الفرد والمعتقدات التي يزاولها ، إلا أن هذه التصورات لم ترد الا عرضا في مجمل كتابه المشار إليه •

من المآخذ التي تؤخذ على مثل هؤلاء المفكرين — بالرغم من اعتبارهم روادا ومؤسسين لعلم الانسان الاجتماعي — هو دراستهم لهذه المعتقدات باعتبارها مفاهيم أو جوانب في حد ذاتها ، وليست تنظيما للعلاقات الاجتماعية • فبالرغم من أن الفرد في المجتمع قادر على تنظيم وتكييف نفسه مع أفراد مجتمعه — إذا كان سويا — وقادر أيضا على إيجاد نظم تسير ورغباته ، إلا أنه كثيرا ما يخرج عن طبيعة وجوهر الدين الذي يعتنقه •

---

(١٠) D. Forde, (Ed.) African Worlds , London, 1954 : PP. 1 — 3

(١١) E. Evans — Pritchard , Nuer Religion , Oxford , 1956 : PP. 125 — 127 .

ذكرت سلفا أن مهمة علم الانسان الاجتماعي تنحصر في دراسة العلاقات الاجتماعية الملموسة ، وأنها ـ أي العلاقات الاجتماعية ـ تعبير تجريدي يندرج تحت التصرف الاجتماعي للافراد ، ويشمل هذا التعبير التجريدي وقائع السلوك المظهري ـ أي الجوانب الملموسة في الحياة اليومية ، والجوانب التي تتعلق بالافكار والقيم والاخلاق والالتزام . وبالرغم من أن هذه الجوانب الاخيرة تعتبر جزءا لا يتجزأ من السلوك الاجتماعي ، الا أنها غير ملموسة ـ أي كامنة لا تظهر للعين المجردة إلا في صورة قيم وأفكار مثلى قد لا تنطبق مع وقائع الحياة الاجتماعية ، وبهذا فلا تعتبر ذات فائدة اجتماعية لافراد المجتمع . أما إذا انسجمت الجوانب المتعلقة بالقيم والاخلاق مع وقائع السلوك المظهري فيمكننا القول بأن نوعا من الايديولوجية الاجتماعية قد تحققت للمجتمع . وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال إلا بقبول أغلب فئات المجتمع لهذا النوع من السلوك الاجتماعي حتى تتكون الايديولوجية السليمة . وبمعنى آخر فان النظم الاجتماعية هي مزج من الاعمال (الوقائع) والافكار (المثل) . فالجانب الاول له نتائج ملموسة وظاهرة ، والجانب الثاني له معاني كامنة . وهنا تنحصر مهمة مفكر علم الانسان الاجتماعي في التعامل مع كلا الجانبين اللذين بطريقها يستطيع أن يعرف ويحلل النظم والانساق الاجتماعية الموجودة في المجتمع فنظام القرابة مثلا Kinship System يشمل في مضمونه نوعا من المواقف والاتجاهات والالتزامات كالاحترام ، والسلطة ، والحماية ، ويقوم بدور التنسيق الاجتماعي للعلاقات الاجتماعية بين أفراد العشيرة أو القبيلة ، بحيث إذا خرج أي فرد من الافراد عن النسق القبلي يحق لافراد العشيرة أو القبيلة انزال العقوبة عليه ماديا ومعنويا .

من الامور الهامة التي يجب على المتخصص الاجتماعي مراعاتها عند

قيامه بأي دراسة ميدانية في أي مجال من المجالات أو لاي نظام من الانظمة ، أن يلم بالحقائق والوقائع المراد دراستها قبل القيام بعملية التحليل • وبالرغم من أن الوصف والتحليل متلازمان لاي دراسة ميدانية إلا أنهما قد يقودان الباحث إلى مغالطات كثيرة وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية • وعليه ـ أي الباحث ـ أن يحدد الطريقة التي سيتبعها في تحليل بياناته ، وتحديد نوع الدراسة وصفية كانت أو تحليلية أو كليهما معا • فالدراسة الوصفية عادة ما تكون شاملة لنظام من الانظمة الاجتماعية في اطار عام ، بينما الدراسة التحليلية هي طريقة أو منهج يتخذه الباحث للتعامل مع الوقائع والحقائق الاجتماعية ، وتعتبران أكثر تحديدا وعقلانية من الدراسة الوصفية • إلا أن الباحث قد لا يجد مفرا من تطبيق المدخل الوصفي على المجتمع المبحوث وخاصة عندما يفتقر إلى الدراسات والمعلومات التي تخص المجتمع المدروس • وبالرغم من ذلك فان الدراسات الوصفية لا تخلو في حد ذاتها من عملية التحليل ، إلا أنها عادة ما تكون محدودة • وبامكان الباحث تطبيق النظرية التي تتلاءم مع طبيعة ونوع الدراسة حتى وإن كانت وصفية Discriptive • فاستخدام النظرية يحدد للباحث نوع الوقائع والحقائق التي يؤكد عليها من خلال دراسته الوصفية لمجتمع البحث ، وأيضا تجعله يلتزم طرق معينة في ربط الوقائع والاحداث بعضها ببعض (١٢) •

والجدير بالملاحظة هنا ألا يركز الباحث على عملية التعميم التي وصل اليها من خلال دراسته لاي نظام من الانظمة السائدة في المجتمع ، وانما الاهم من ذلك تحديد مجال وموضوع الدراسة والنظرية أو المدخل المراد تطبيقه • ومن الضرورة بمكان أن يبتعد الباحث بقدر الامكان عن

---

(١٢) Selltiz, C., and others, Research Methods in Social Relations. London, 1959 : PP. 480 — 491 .

العمومية والوصفية ، حيث ان المجال الـذي يحـدده الباحث للدراسة والبحث عادة ما يكون غير مألوف ـ جديد ـ وهـذا يعني أن حكـم الباحث ورأيه في هذه الموضوعات يعتبر مشتقا ضمنيا من ثقافة مجتمعه ، وبالتالي فقد تقوده نتائج البحث الى المغالطة وتشكيك الآخرين في نتائج هذه الدراسة • ومما يدعم نتائج البحث الاعتماد علـى بعض المداخـل النظرية الواضحة والصريحة وخاصة أثناء عملية تحليل البيانات بالاضافة الى وجود التوافـق والتطابق بين نـوع الاسئلة التـي يقوم البـاحث الانثروبولوجي بتقديمها والاجوبة التي يقـوم بتحليلها فيما بعـد ، وان بتجنب التعارض بين نوع الاسئلة وطبيعة المواقف الفجائية •

تعددت الطرق المنهجية واختلفت في تحليل البيانات الميدانية ، كمـا تعددت المداخل النظريـة وتطبيقاتها في مجال علم الانسـان الاجتماعي • ويرجع هذا الاختلاف الى طبيعـة المجتمعات البشرية ، فمنهـا المجتمعات المتخلفة ، ومنها النامية أو الانتقالية ، ومنها المتقدمة صناعيا • الا أن الطابع الذي تميز به تحليل البيانات الميدانية هو طابع المغالطة ، ومرد ذلك الـى التباين الثقافي الموجود بين الباحث وبين مجتمع البحث وعدم المامه بثقافـة المجتمع ولغته ، ويرجع ذلك أيضا الى العمومية وعدم تحديد مجال الدراسة الميدانية • فالباحث الميداني هدفه الاساسي دراسـة المجتمع الذي حـدد للدراسة من جميع الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية ، وقلما نجد في الدراسات الميدانية التي أجريت جوانب محددة الدراسة ، بل ما نلاحظه في كثير من الدراسات والمـؤلفات هو شموليـة الدراسة لشتى الانظمة السائدة في المجتمع في فترة زمنية وجيزة جدا • فبالرغم من تحديد عناوين المقالات والمؤلفات التي جاءت نتيجة لدراسات ميدانية كثيرة ، الا أن الدارس لمثل هذه المؤلفات يجد بين دفاتها تعدد المجالات والموضوعات • وبالرغم من تعدد فروع العلم وتنوعها ، الا أنه ما زلنـا نلاحظ استمرارية

التركيز على دراسة الكل الوظيفي للانظمة سواء كانت الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، أو السياسية بدلا من التركيز على الجانب الاجتماعي • كما نلاحظ أيضا أن هناك تعديا من بعض الفروع مثل علم الانسان الاقتصادي Economic Anthropology الذي نجده يهتم في كثير من الاحيان بدراسة الانظمة الاجتماعية والسياسية والدينية ، في حين أن هذه المجالات هي مجال علم الانسان الاجتماعي ، وعلم الانسان السياسي ، وعلم الانسان الديني •

اننا لا ننكر ارتباط الانظمة بعضها ببعض لتكون ما يسمى بالبناء أو التركيب Structure كما لا يمكن أن ننكر ارتباط الفروع بعضها ببعض لتكون ما يسمى بالعلم ، ولكن ليس بالدرجة التي أصبحت عليها اليوم • فعملية التعدي لمجالات الفروع الاخرى سوف لن تؤدي الى بناء وتطوير علم الانسان الاجتماعي بقدر ما تقوم به من هدم وتشكيك في كثير من فروع هذا العلم • ومن المآخذ التي تؤخذ على بعض هذه الفروع هو دورانها في حلقة مفرغة ، شأنها في ذلك شأن الدارسين والمفسرين لبعض الاديان السماوية والاحاديث النبوية ، التي لم تكن الا امتدادا لبعضها بعض وتأثرا ببعضها بعض • ولا يمكن أن يدان علم الانسان الاجتماعي وحده بهذه التهم الموجهة اليه ، وانما يشاركه في ذلك علم الاجتماع الديني ، والسياسي ، والاقتصادي ، وكثير من فروع العلوم الاجتماعية الاخرى[١٣] • لقد أشار أحد مفكري علم الانسان الاجتماعي الى أن وظيفة

---

(١٣) لقد ساهمت المدرسة الامريكية الاجتماعية في ذلك أكبر مساهمة في تعدد هذه الفروع بالرغم من كونها تتفق في كثير من المجالات . الا ان البعض يعتبر هذه المساهمة تطويرا للعلوم الاجتماعية ، في حين انني ارى ان هذه المساهمة ما هي الا وسيلة لاكتساب الرزق . فما يدرس الآن في كثير من الجامعات الامريكية بصورة خاصة ، وبعض الجامعات الاوربية بصورة ←

التحليل هي اضافة معاني جديدة الى ما هو موجود ، وبمعنى آخر تفسير وتحليل الوقائع الاجتماعية والسلوك الاجتماعي بما يتلاءم وظروف البيئة والمجتمع ، ومحاولة اظهار هذه الوقائع الى شيء شبه ملموس كما هو الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية التي تسير وفق قوانين علمية بدرجة من الثبات والقبول على المستويين العلمي والاجتماعي . فتفسير شيء ما ـ سواء كان هذا الشيء واقعة أو ظاهرة اجتماعية ـ معناه جعله في اطار محدد المجالات مبتعدا كل البعد عن تعدي بقية المجالات الاخرى التي تخص شتى الفروع الاجتماعية الاخرى سواء بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي أو علم الاجتماع[١٤] .

تتعدد الطرق المنهجية بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع التي تهتم بربط الاشياء بعضها ببعض بدلا من تجزئتها ودراستها كأشياء قائمة بذاتها . فاذا درسنا مثلا نظام الزواج في مجتمع من المجتمعات فاننا بالضرورة سنتعرض الى مفهوم المهر Bridewealth وقيمته ، والطريقة التي يتم بها اختيار الزوج أو الزوجة والعادات والتقاليد المتبعة بالنسبة لهذا النظام ومدلولاتها الاجتماعية . وما أود أن اوكد عليه هنا أن جميع التفسيرات النظرية لظاهرة أو واقعة اجتماعية تعتبر في حد ذاتها ـ قياسيا

← عامة ـ وقد حذت جامعات الدول العربية ودول العالم الثالث حذوها ـ لا يتعدى فصول دراسية لفرع من الفروع ، أصر المتخصصون على أن تكون فروعا قائمة بذاتها ، حاولوا بشيء من الذكاء على حساب العلم أن يحوروا لها نظريات متعددة اعتبروها جديدة من خلق فكر إنساني مبدع ، اكتسبوا بها ألقاب علمية غير جديرين بها على الاطلاق . ولهذا فقد شاهدت العلوم الاجتماعية ركودا هائلا في العقدين الاخيرين من هذا القرن . وعليه فانني أشك في أن تتكرر بعض الاعمال الاكاديمية مستقبلا كأعمال ابن خلدون ، وماكس فيبر ، وأوجست كونت ، وهربرت سبنسر ، وبار سونز ، وخاصة في مجال النظريات الاجتماعية .

(١٤) S. F. Nadel, The Foundations of Social Anthropology. London, 1951 : Chapter 3 .

على الاقل ـ ادراج هذا الشيء أو الواقعة الاجتماعيـة في اطار نظـري محدد • ومن المتفق عليه فان عملية التفسير تشمـل ذلك الاطـار النظري الذي يحدده الباحث وفق نظريات ومداخل اجتماعية متعارف عليها ، بعدها تأتي عملية ادراج الخاص تحت اطار العام حتى يسكننا القول بأن الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية قد فسرت وحللت الى عناصرها في اطار كلي شامـل بحيث لا تخرج هذه التفسيرات والشروح عن ثقافة ونظم المجتمع الـذي قام الباحث بدراسته ، فاذا خرج الباحث عن هذا الاطار (أي الاطار الكلي لثقافة المجتمع) فيجب أن يكـون خروجه هذا مـن أجل المقارنـة فقط Comparative وذلك لغرض التمييز بين ثقافة مجتمع وآخر ، أو بـين نظام من الانظمة المدروسة حتى تتحدد عملية التماثل أو التباين من عدمها•

من الامور التي يجب أن يأخذها باحث علم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع في الاعتبار ، عند القيام بأي دراسة مقارنة ، هو مقارنة موضوع الدراسة بالانظمة المتشابهة والتي لها علاقة بموضوع الدراسة سواء كانت ميدانية أو مكتبية بدلا من مقارنتها بالانظمة التي تختلف اختلافا جوهريا عن موضوع الدراسة الذي حدده الباحث ، والتي قد تختلف الى حد كبير بمدلولاتها ونتائجها الاجتماعية • فلا يمكن لاي باحث تجاهل الدراسات المقارنة في ميدان البحوث الاجتماعية والتي بطريقها يستطيع الباحث تحديد اطار موحد لطبيعة الانظمة المتشابهة والكشف عن العوامل والمسببات التي أدت الى مثل هذا التشابه ـ سواء كانت مادية ، معنوية ، أو بيئية ـ ليس بسبب تشابهها صدفة أو عرضا ، ولكن لاثبات نوعياتها والتي تعتبر بالمفهوم الاجتماعي ذات أهمية بالغة قد تكون كامنة في النظام الاجتماعي والتـي قد لا يستنتجها الباحث الا بطريق المقارنة • ان أشياء كثيرة قـد يستفيد منها الباحث الاجتماعي عند دراسته لمفهوم القرابة Kinship ومدلولاته الاجتماعية في منطقة بنغازي مثلا ومقارنته بمفهوم القـرابة ومدلولاتـه

الاجتماعية في منطقة خارج منطقة بنغازي ، وقد تكـون الاستفادة أكثـر عند مقارنته باحدى دول الوطن العربي بدلا مـن مقارنته بنظام القرابـة الموجود في احدى دول أوربا أو الامريكيتين حيث ان الاختلاف في هـذه الحالة يعتبر جوهريا ، سواء من حيث تركيب النظـام ذاته أو مدلولاتـه الاجتماعية وتطبيقاتها ، وهذا بطبيعة الحال له اعتبارات جديرة بالاهتمـام بالنسبة لمفكري علم الانسان الاجتماعي • فاذا قام الباحث بدراسة بعض الانظمة لمجتمعات تختلف ثقافتها كلية ، فان الشرط الاساسي للقيام بمثـل هذه الدراسات هو إلمامه وفهمه لثقافات هذه المجتمعات في أطرها البيئيـة والاجتماعية ، وعليه أن يكون حذرا أثناء مقارنته لانظمة مختلفة اختلافـا جوهريا • وهذا لا يعني أنه يتعذر عليه القيام بذلـك ، أو ان مثل هـذه الدراسة ستكون عقيمة النتائـج أو مغلوطة ، فكمـا ذكرت أن الشـرط الاساسي للقيام بمثل هذه الدراسات هو توفر الاستعداد التام مـن حيث الالمام بثقافات المجتمعات الخاضعة للدراسة والمقارنة ، وفي مقدمتها لغـات تلك المجتمعات • فالالمام باللغة يعتبر أساسا مدخلا لفهم الانظمةالاجتماعية، وبالتالي تكون نتائج الدراسات الميدانية ذات فعالية وفائدة لا ينكرها أي متخصص اجتماعي •

ان الامر الذي دعاني الى التأكيد عن الالمـام بلغة وثقافـة المجتمع الخاضع للدراسة هو تلك الدراسات العقيمة التي قام بها بعض المفكرين من دول أوربا والامريكتين لبعض مجتمعات العالم الثالث • والمطلع على مثل هذه الدراسات **المغلوطة** يشعر بالفارق الكبير للنظم أو الابنية الاجتماعية السائدة التي يعاصرها المتخصص الملم بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه وتلك التي درست ووصفت عن طريق بعض الدارسين الاجتماعيين الذين أمضوا فترات زمنية وجيزة لا تؤهلهم حتى للالمام بالحروف الابجدية للغة المجتمع، وفي الوقت نفسه يتجرؤون على حساب العلم والانظمة التي افترضوا أنهم درسوها دراسة علمية موضوعية ــ والتي لا تتعدى في واقع الامر الملاحظة

العابرة للكتابة في موضوعات ومشاكل اجتماعية هي في حقيقة الامر بعيدة كل البعد وبريئة من المغالطات والتلفيقات التي ألصقها بها أمثال هـؤلاء . فهناك موضوعات ومشاكل تصعب دراستها والكتابة فيها حتـى من قبـل المتخصصين الذين ترعرعوا في ظل هذه الانظمة واكتسبوا ثقافـة المجتمع الذي عاصروه أو يعاصرونه . والغريب في الامر أن تجد مثل هذهالدراسات والمؤلفات سوقا رائجة ومؤسسات علمية فاتحة أبوابها لتدريس ما جاء في هذه الكتب الملفقة بدلا من تقييمها وتصحيحها(١٥) .

لقد ساد الجدل والاختلاف بين مفكري علم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عما اذا كـان هناك نوع من القوانين التي تسيّر وتنظّم الانظمة والعلاقات الاجتماعية السائدة في مختلف المجتمعات البشرية ، وهـل بالامكان التوصـل الـى اكتشاف قوانين تسير وفقها المجتمعات البشرية من خلال الانظمة السائدة فيها . وهناك بعض المفكرين المشتغلين بعلم الانسان الاجتماعي مـن رأى أن هذا العلم يمكن مقارنته ببعض العلوم الطبيعية مثل علم الاحياء وعلـم الكيمياء(١٦) ، وبالتالي يمكـن التوصل الـى اكتشاف بعض القوانـين الاجتماعية التي يجوز استعمالها في تنظيـم العلاقات الاجتماعية . ومـن المفكرين من نظر الى أن هذا العلم (علم الانسان الاجتماعي) على أنه علم مجرد وخاصة أولئك المهتمين بالدراسات التاريخية والفلسفة الاجتماعية ـ

---

(١٥) ليس المقصود بذلك التعصب لجزئية الثقافة . فجميع الدارسين والمتخصصين والمثقفين يؤكدون على عمومية الثقافة ، فهى ليست مقتصـرة على مجموعة دون الاخرى أو مجتمع دون الآخـر ، ولكـن عمومية الثقافـة لا تعني أن نأخذ بجميع ما يكتسب على حساب العلم والمعرفة .

(١٦) C. Levi — Strauss. The Elementary Structure of Kinship 1969 : PP. 4 — 7 .

حيث عارضوا فكرة مماثلة هذا العلم بالعلوم الطبيعية ، وبالتالي أنكروا وجود أو اكتشاف قوانين اجتماعية تقوم بتنظيم الانظمة الاجتماعية وتحديد نوع العلاقات الاجتماعية السائدة في شتى المجتمعات الانسانية . ولم تقتصر معارضتهم لاكتشاف القوانين الاجتماعيةعلى علم الانسان الاجتماعي فقط بل شملوا جميع العلوم الاجتماعية وفي مقدمتها علم الاجتماع(١٧) .

لقد رأى أصحاب الرأي المعارض لفكرة اكتشاف القوانين الاجتماعية وتطبيقها في دراسة الانظمة والعلاقات الاجتماعية أنه لا يمكن بأي حال من الاحوال ايجاد وتطبيق أي نوع من القوانين وخاصة فيما يتعلق بدراسة العلاقات الاجتماعية لكونها مجردة وأنه يتعذر تطبيق أي قانون معين على نوع التصرف الاجتماعي Social Behaviour لان هذا يحد من حرية التصرف الارادي للفرد في المجتمع ، وأكدوا بقولهم : ان التصرف الاجتماعي في كثير من الاحيان والمواقف يحدث تلقائيا متخطيا كل الحدود واللوائح الاجتماعية والاعراف حتى بين أفراد المجموعة التي تربطها صلات الدم والقرابة ، كما هو الحال عند تقسيم الملكية Property واختيار الزوج أو الزوجة خارج حدود القربى ... فكثيرا ما كان نظام الزواج محصورا في نطاق أفراد العائلة المتدة Extended Family أو العشيرة Clan في المجتمعات البسيطة وذلك نظرا لارتباط مثل هذه الجماعات Blood — Money الدموية بالتزامات اجتماعية مشتركة مثل دفع الدية

---

(١٧) ان هذا الاختلاف بين الرأيين ما هو الا مجرد اختلاف جدلي وخاصة بين المهتمين بدراسة الشعائر والمعتقدات الدينية في المجتمعات البسيطة . وبالرغم من تناولهم لفكرة اكتشاف القوانين وتطبيقها من عدمه ، الا ان كلا الرأيين لم يوضحا المقصود بمفهوم القانون الاجتماعي من حيث تعريفه ووظيفته ، وتميزت كتاباتهم بطابع فلسفي جدلي بعيدة كل البعد عن مجال علم الانسان الاجتماعي الذي يعتمد الى حد كبير على الدراسات الميدانية المقارنة لما لها من أثر في تفسير الانظمة والعلاقات الاجتماعية .

والمساهمة في نفقات تكاليف الزواج ، والمشاركة الجماعية في القيام بجميع الانشطة الاقتصادية Economic Activities مثل حرث الارض وزرعها ، وجني المحصول وتوزيعه حتى ظهر بما يسمى بجماعة الجسم الواحد Corporation القائمة على النسق القرابي Kinship System والتركيب القبلي Tribal Structure . وبالرغم من وجود هذا النوع من الجماعات في بعض المجتمعات التي يلعب فيها شيخ القبيلة دورا قياديا متسلطا هدفه في ذلك احراز السلطة وتوريثها لسلالته وقرابته من بعده ، وتكوين الثروات على حساب بقية أفراد المجموعة الواحدة ، وقد يساعده في ذلك نظام الحكم السائد في المجتمع والذي كثيرا ما يكون مبنيا على التركيب القبلي ذي المصلحة الفردية ، بأن جعل لشيخ القبيلة مكانة اجتماعية Social Status حتى وان لم تكن مقبولة من بعض أفراد القبيلة . الا أن نظام الحكم ونوع التركيبة القبلية السائدة تعتبر تصديقا للمكانة التي يتمتع بها شيخ القبيلة الامر الذي يؤدي في كثير من الاحيان الى تجريد بعض الافراد الرافضين للتركيبة القبلية من عضوية القبيلةوحرمانهم من جميع حقوقهم الاجتماعية ومستلكاتهم الاقتصادية ، وعادة ما يحدث هذا في المنازعات القبلية التي تأتي نتيجة استغلال الاراضي القبليةوموارها من قبل أفراد مصلحيين دون غيرهم(١٨) .

ان المشكلة التي تواجه المشتغلين بالعلوم الاجتماعية هي مدى التمكن من محاولة شرح وتفسير التصرف الاجتماعي ضمن قوانين ولوائح اجتماعية في حدود الاطار الثقافي للمجتمع . الا أن هذه الفكرة التي شغلت أذهان المفكرين الاجتماعيين لفترة زمنية ليست بالوجيزة تعتبر الى حد كبير فكرة خاطئة لم تبن على نظريات أو قواعد منهجية سليمة ، بل يرجع

---

(١٨) ان خير دليل على هذا . النظام القبلي الذي كان سائدا في ليبيا قبل عام ١٩٦٩ .

ظهورها الى سوء فهم طبيعة المعرفة . فالكل يتفق على أن التصرف الارادي ناتج عن حقيقة التجربة ، فالفرد في المجتمع له حريـة التصرف والاختيار ، وقد يتحدى في كثير من الاحيان والمواقف تلك القوانين والانظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أوجدتها بيروقراطية النظم المفتعلة ، ويقـوم بأفعال وردود أفعال قـد يعتبرها البعض خروجا عـن بيروقراطية النظـم السائدة في المجتمـع . وبمجرد أن يوفـق الفرد في تحديـه لبروقراطية الانظمة ـ التي لا تعتبر أو لا تزيد عـن كونها اديولوجيات ساعد علـى وجودها مجموعة من الافراد من خلال ممارستها لحكم أو سلطة بيروقراطية ـ تتفسخ بعد ذلك بيروقراطية الانظمة وتتجسد حرية التصـرف الارادي والاختيـار[١٩] .

ان جميع الانظمة التي ابتدعت في الـدول النامية والصناعية بحجـة تنظيم العلاقات الاجتماعية والانتاجية هي نظم مفتعلة ذات طابع مصلحي ، ومهما وجدت من أنظمة بيروقراطية فجميعها مبنية على فروض وتكهنـات لا علاقة لها بالفكـر الاجتماعي ، وانما هي عبـارة عن فروض حـدسية مفروضة بحكم وجود السلطة الحاكمة أو طبقة الحكم . وبالرغم من ذلك فان الفرد لا ينكر وجود بعض الانظمة التـي تساير تصرفاته الاجتماعيـة وعلاقاته مع غيره من الافراد شريطة خلوها من البيروقراطية . ويشترط في هذا النوع من الانظمة لكي تقبل ألا تتعارض مع طبيعة العلاقات الاجتماعية أو بمعنى آخر وضع حد اجتماعي لها . ولكي تكون هـذه الانظمة ذات

---

(١٩) لا يتأتى هذا التغيير الا بطريق مجموعة مـن الافـراد آمنت بأن البيروقراطية على جميع مستوياتها هي قوة الدفع الوحيدة التي تحد مـن حرية التصرف الارادي . ولكي يتم تحطيم بيروقراطية الانظمة ، فلا بد أن تتسم هذه المجموعة من الافراد بالطابع القيادي بادىء الامر ، ومتـى تيقنت المجموعة القيادية من زوال بيروقراطية الانظمة ، يجب أن تنحصر وظيفتهـا بعد ذلك في دور الاشراف والتوجيه .

دلالة اجتماعية مقبولة . يجب أن يساهم جميع أفـراد المجتمع في وضعهـا والاتفاق عليها ، حينئذ تنتفي عملية الرفض وعدم القبول .

تناول أغلب مفكري العلوم الاجتماعية في دراساتهم وأبحاثهم بـأن تصرفات الافراد في المجتمع تعتبر منسوطة وذلك نتيجة بيروقراطية النظـم السائدة . وكان من الاجدر أن يهتموا بدراسة تصرفات الافراد الارادية ونوعية العلاقات الاجتماعية بدلا مـن تفسير وتحليـل التصرف الارادي ـ إن وجد ـ من خلال الانظمة السائدة ، بل تركوا جانبا سلوكية الفرد وعلاقاته الاجتماعية بغيره . واهتموا بدراسة الانظمة نفسها التي تحـدد سلوكية الفرد في المجتمع ، مثل اهتمامهـم بسلطة شيخ القبيلة ، وتلـك اللوائح التي يفرضها على أفراد قبيلته ، ومفهوم القبيلة ، ومفهوم الملكية، ومفهوم القرابة وأثر ذلك علـى العلاقات الاجتماعيـة ، وأدخلوا هـذه المفاهيم الرسمية في تحديد العلاقات الاجتماعية ونظم الـزواج والطلاق ، والمهور . واستغلال موارد القبيلة ... لدرجة أنـه في بعض المجتمعات البسيطة والنامية على حـد سواء نجد أن التصـرف الارادي للفـرد في المجتمع مكبل بمثل هذه المفاهيم .

لقد كان ولا يزال للنظم القبلية التأثير الكبير على التصرفات الارادية للافراد . وخير دليل على ذلك هو عدم تصرف الفرد في ملكيته بحجة أنها قبلية . وأن القبيلة وحدة اجتماعية Social Unit لا تتجزأ . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل توجد لوائح تنظيمية قبلية تتعلق بتحديد الزواج داخل القبيلة نفسها يسنها شيخ القبيلة ومعاونيـه مستندين على وجـود رابطة الـدم Boold — Tie سواء كانت هذه الرابطـة قريبة أو بعيـدة Putative ، مدعين بأن هذه الوحدة الاجتماعية (القبيلة) هي كيان اجتمـاعي Social Entity لا يمكن المساس به ولا مكان اجتماعيـا لاي دخيل عليه . والحقيقة هي عكس ذلك تمامـا . فالغرض من عـدم

اعطاء الفرد حريته الارادية في حصوله على حاجاته الضرورية واختياره لشريكة حياته هو تجسيد الملكية القبلية والحفاظ على ثروة القبيلة داخلها بقصد الانتفاع منها من قبل افراد ذوي سلطة قبلية شأنهم في ذلك شأن الاقطاعيين في الدول الرأسمالية . والاخطر من ذلك هو تجسيد القبلية بعصبيتها وعنصريتها . وخير دليل على ذلك التركيب القبلي الذي كان سائدا في ليبيا قبل عام ١٩٦٩ . حيث كانت بعض القبائل مسيطرة سيطرة كاملة ومستحوذة على السلطة بحجة أنها أكثر عددا وثروة . وانها أنقى القبائل وأصفاها أصلا وفصلا بالرغم من أنهم ينحدرون من اصل واحد .

فالقوانين الطبيعية التي يستخدمها بعض المشتغلين بالعلوم الاجتماعية في تفسير الظواهر الاجتماعية Social Phennonena والعلاقات الاجتماعية هي في الواقع عبارة عن فروض تفسيرية لا دخل لها في بعض القضايا التي تتعلق بالتصرف الارادي والاخلاقي . فالخطأ الشائع الذي وقع فيه كثير من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية هو محاولة تغييرهم للمفاهيم المجردة الى وقائع أو أشياء ، حتى تلك التي لا تظهر للعين المجردة . وقد حاول كثير من المتخصصين تفسير الوقائع أو الاشياء ، او العلاقات الاجتماعية التي تخص الجنس البشري في أي مجتمع من المجتمعات الانسانية في اطار قواعد ونظم أطلقوا عليها مفاهيم متماثلة كالنسق الاجتماعي Social System ، والنظام الاجتماعي Social Order والقانون الاجتماعي Social Institution ، دون محاولة تفسير هذه المفاهيم أو حتى ربطها بما يجري في الحياة اليومية الاجتماعية منها الاقتصادية والسياسية . ففي ميادين الدراسات الانسانية الاجتماعية ، زاد الامر تفاقما وخاصة فيما يخص مفاهيم الانساق والنظم الاجتماعية حيث نجد كثيرا من المشتغلين بهذه المفاهيم لم يحاولوا تحديدها والهدف من اعتبارها قوانين تنظم سير العلاقات الاجتماعية وتحد من حرية التصرف

الارادي ، بل اعتبروها قوانين ولوائح تنظيمية ، علمية لا جـدال فيها ، ولم يأخذوا في الاعتبار أن الفرد في المجتمع عرضة لمسايرة كل جديد يطرأ عليه لكـن تحدث عمليـة التكييف الاجتمـاعي Social Adaptation وانه (الفرد) في كل يوم يحدث تغيرات اجتماعية في طبيعة علاقاته مـع غيره من الافراد ، فكما هو متعارف عليه أن الفرد يمر بدوره في الحيـاة Life Cycle ، وأن طبيعة أي مجتمع بما فيه البيئة الجغرافية تتطـور وتنمو وتتغير ، وعلى الفرد مسايرتها لكي يعيش ويتعايش معها .

من بين المفكرين الذين أهملوا حركةالنمو والتغيير رادكلف ــ براون R. Brown . الذي أكد في كثير من كتاباته ومناظراته أن هذه المفاهيـم مرتبطة بالمجتمعات الراكدة Static ، وأن هناك نوعا مـن الثبوتية في طبيعة الحياة الاجتماعية تسيرها مجموعة من الانساق والنظم الاجتماعية ، واعتبره الكثيرون من المتأثرين بآرائه أنه اول مـن حـدد وجعل لعلـم الانسان الاجتماعي قوانين علمية(٢٠) . الا أن مجهودات رادكلف ــ براون وأتباعه لم تتعد مجرد التعميمات والآراء التجريدية التي توصلوا اليهـا بطريق الملاحظة أطلقوا عليها النظرية الوظيفية ــ التي لم تحاول تفسير أي شيء ــ بل عجزوا عنتفسير النظرية الوظيفية نفسها . فالقانون العلمي ليس هو مجرد عرض لافكار تجريديد وانما هو تلك التركيبة النظريـة التي تقوم بتفسير الانظمة الموجودة في المجتمع ، وليس هو استدلال أو استنتاج لمجموعة من المبادىء والافكـار الموجـودة ، وليس استقـرار لملاحظات تجريدية وإنما هو ــ أي القانون العلمي ــ تقرير نظرية علمية أو مدخل علمي جديد ، وما تعنيه النظرية أو المدخل النظري من تفسيرات

---

(٢٠) يرجع هذا التأثر بفكرة الركود والثبوتية الى الظروف البيئية والاجتماعية التي اوجدها الاستعمار في المجتمعات البسيطة التي عاصرها رادكلف ــ براون واتباعه آنذاك وقاموا بدراستها .

وشروح علمية لا يعني تعميمها ، حيث إن عملية التعميم Generalzation تحتاج إلى مواقف وظروف اجتماعية محددة بزمان ومكان • فالعلاقة الاجتماعية المنموطة ، والتحفظية القائمة بين الزوج وأم زوجته مثلا في مجتمع ما لا يمكن تعميمها على كل المجتمعات ، حيث إنها تختلف باختلاف الانظمة وطبيعة المجتمع • ففي المجتمعات الصناعية نجد أن هذه العلاقة غير منموطة بالدرجة التي عليها في الوطن العربي ودول العالم الثالث ، حيث إنها في الاولى علاقة مفتوحة ، بينما في الثانية تعتبر مغلوقة إلى حد كبير • والدارس لهذين النوعين من العلاقات الاجتماعية لا يمكنه بأي حال من الاحوال تطبيق مدخل نظري واحد ، لان ما ينطبق على نوعية العلاقة الاجتماعية الاولى لا ينطبق على الثانية ، وعليه تحديد مداخل نظرية تتعامل مع كلا النوعين من العلاقات الاجتماعية المنموطة وغير المنموطة حتى يمكنه التوصل الى درجة المقارنة السليمة بين كلا النوعين من العلاقات الاجتماعية ، لانه يتعامل مع مواقف اجتماعية مختلفة ، ونظام قرابي مختلف ، وأنظمة اجتماعية متغايرة •

المراجع والمصادر :

Evans — Pritchard , E. E. 1956 . **Nuer Religion** Clarendon . Press Oxford .

Forde, C. D , (Ed.) 1956 **African Worlds Oxford** University , Press for the International Journal of African Institute . London .

Gannous , S. M. 1977 **The Social Structure of Al — Abiyar Township .** Unpublished Ph. D Thesis . Manchester University , Manchester .

Discriptive

Levi — Strauss , C. 1953 . Social Structure A. L. Kroeber (Ed:) **In Anthropology To Day .** University of Chicago Press. Chicago .

Levi — Strauss , C. 1969 **The Elementary Structure of Kinship** Alden Press , Oxford .

Nadel , S. F. , 1951 **The Foundations of Social Anthropology** , The Free Pree, Glencoe .

Parsons , T. 1949 **Essays in Sociological Theory .** Tavistock Publication , Glencoe .

Parsons , T. 1952 **The Social System .** Tavistock Publications , Glencoe .

Peters , E. L. 1975 **Aspects of Affinity in a Lebanese Maronite Village .** Manchesceter University , Manchester .

Redfild , R. . 1951 **The Folk Society .** The American Journal of Sociology . No. 52 .

Selltiz C., and others, 1959 . **Research Methods in Social Relations.** Henry Holt . New York .